

الزاوية الانبعائية : أي معنى و أي تحديات

أ.يخلف الحاج¹

مقدمة:

تعالج الدراسة نموذج لمؤسسة تقليدية هي الزاوية، وذلك من خلال تحليل أسسها الانثروبولوجية المعتمدة في التأسيس، وتتمثل هذه الأسس في: الأساس التصوري و الأساس الخطابي ثم الأساس الممارس. حدد البحث هذه الأسس كمؤشرات، وأول مؤشر هو، المشروعات التأسيسية الرمزية، و هذه الأسس هي التي تغذي شرعيتها الروحية في الوسط المحلي، أما المؤشر الثاني فهو الحث و الكشف عن الرموز الصوفية للأساس الخطابي الذي تنتجه الزاوية و تقدمه لمريديها، أما الأساس الثالث فهو الأساس الممارس، أي ترجمة للخطاب الذي تنتجه الزاوية لنفسها إلى ممارسات و ما مدى تطابقها بالخطاب.

تعتبر الزاوية بنية سوسيو- دينية معقدة تظهر قدرة ذاتية على التأقلم¹، مع مختلف ظروف الحياة العامة حسب نجيب مهتدي. إذ لعبت الزاوية أدوارا سياسية عبر محطات تاريخية مختلفة، إما موالية أو متمردة لسلطة سياسية على حساب أخرى، و كان هذا الدور قبل ظهور وتطور الحركات الوطنية. و بعد الاستقلال ظلت الزاوية محافظة على وجودها ومسايرة للمعطى السياسي الجديد إما مدعمة لمواقف هذه الأحزاب أو معارضة لها، مثل تحالف الزوايا مع حزب فيدرالية المنتخبين الذي أسسه الدكتور بن جلون²، أو في الصراع الإيديولوجي بين جمعية العلماء المسلمين و الزوايا، حيث أظهرت الزوايا في هذا الصراع قدرة على تأقلمها مع الفكر الإصلاح. وحسب محمد القورصو³ (1989) فاعتبر، أن اندماج

¹ باحث بالمركز الوطني للبحوث في عصور ما قبل التاريخ، علم الإنسان و التاريخ.

أعضاء مع الطريقة القادرية أو الدرقاوية في وسط جمعية العلماء كان بمهدف المحافظة على كيانهم الديني من خلال الابتعاد عن الجدل القائم بينهم، و هذا ما يسمح لهم بالعمل بحرية اكبر في إعادة إنشاء زوايا، تدخل عليها بعض الإصلاحات أو زوايا ضد الإصلاحات. وهكذا تكون الزوايا قد ضمنت عدم اندثارها من الساحة السياسية الكلية، وتظهر هذه النقطة مدى تأقلم الزوايا من الجانب السياسي.

فالزوايا مؤسسة اجتماعية دينية تقليدية النشأة، نتاج لحركية ثقافية واجتماعية ميزت المجتمعات المغاربية والجزائر بالخصوص منذ القرن الثالث عشر ميلادي⁴. وأطرت مجالات واسعة من الحياة الاجتماعية من خلال الأدوار و الوظائف المنوطة بها، كالتربية الروحية المشبعة بقيم الدين الإسلامي من خلال تعليم للقرآن و السنة النبوية و احترام الآخر مهما كانت صفاته و تعليم قيم الجهاد.

مرت هذه المؤسسة بمراحل تاريخية عصيبة كان لها الأثر العميق على ماضيها ووجودها، و لعل اكبر التحديات التي واجهتها الزوايا في تاريخها المعاصر هو الاحتلال الفرنسي، الذي كلف قاداته العسكريين بدراسات ميدانية شاملة للحياة الاجتماعية من اجل معرفة نقاط قوة المجتمع لتدميرها و نقاط ضعفه للاستثمار فيها. فأدرك المستعمر منذ الوهلة الأولى ماهية هذه المؤسسة في الوسط الاجتماعي عندما اصطدم بها، فسعى بكل زاده للقضاء عليها و هكذا اعتبر تدمير الزوايا عامل رئيسي في استئصال جذور هوية الشخصية المحلية. و لعبت الزاوية دورا كبيرا في المحافظة على الانتماءات للهوية في شقيها الإسلامي و العربي، ففي ظل غياب المدرسة بمناهجها التعليمية كانت الزوايا تسهر على تدريس اللغة العربية و تحفيظ

القرآن و تلقين الطريقة للأجيال المتعاقبة، و بهذا كانت القائم الأول على محافظتها للهوية الوطنية.

ولدت أول المقاومات الرافضة للاستعمار الفرنسي من رحم الزوايا، و سجل التاريخ مقاومة الأمير عبد القادر، القادري الطريقة⁵، والشيخ الحداد والمقراني ولالة فاطمة نسومر من الطريقة الرحمانية بالقبائل، و الشيخ بوعمامة من الطريقة الشيخية بالجنوب الوهراني⁶.

في ثلاثينيات القرن الماضي عرف المجتمع، موجة ثقافية دينية جديدة حاملة في مدها أفكار و اتجاهات وصفت بالإصلاحية من أتباع الشيخ عبده، و في نهاية سنة 1931 تأسست جمعية العلماء المسلمين⁷، بقيادة الشيخ عبد الحميد بن باديس المتخرج من صلب مؤسسة الزاوية⁸، و ميزة هذا التيار دخوله في مواجهة السلطة القدسية لأولياء الزوايا⁹.

معظم الفاعلين الأوائل للحركة الوطنية ينحدر من صلب الزوايا، مثل: مصالي الحاج الذي ينتسب للطريقة الدرقاوية هو و عائلته¹⁰. و عند اندلاع الثورة التحريرية كانت الزوايا بمثابة الخزان الذي غذى الثورة بالمجاهدين، وهذا ما دفع بالإدارة الاستعمارية للانتقام من هذه المؤسسات بقصفها وتدميرها¹¹، مثل ما جرى مع زاوية الصباغين بالعاصمة التي هدمت، و زاوية شختوت التي حولت لثكنة عسكرية¹².

بعد الاستقلال و بقيام الدولة الوطنية، أصبح مصير مؤسسة الزاوية يتحدد حسب موقف السلطة السياسية الحاكمة منها، فالزوايا في سنوات الستينات و السبعينات أو الثمانينات لا تتشابه في ظروفها العامة مع زوايا بداية القرن الواحد والعشرين، إذ يتحدد موقف كل سلطة سياسية من الزوايا حسب أولويات هذه السلطة السياسية، وتظهر هذه الأولوية حسب الظروف السياسية و الاجتماعية السائدة و الغالبة.

ظلت الزوايا في ظل هذه الظروف و لمدة زمنية معتبرة، إما غائبة أو مغيبة عن المشهد العام للحياة الاجتماعية. فبادرت السلطة السياسية خاصة، لإعادة تفعيل دور الزوايا بهدف إعادة صياغة تركيبة الحقل الديني الإسلامي في الجزائر من جديد، يكون فيه النظام التقليدي الطرقي هو العنصر الفاعل و المحرك، لصد الأفكار الدينية المستوردة من جهة، و من جهة أخرى خلق انسجام بين هذه الزوايا رغم تنوع طرقها، فالرابط المشترك بينهما هو التصوف الشعبي¹³ كما يسمية جاك بيرك .

تدرس إشكالية البحث، مؤسسة الزاوية كبنية من الداخل، و تحليل عناصرها المكونة لها. و يتناول أول عنصر، الواقع التأسيسي للزاوية و المشروعات التي تبنيتها و اعتمدت عليها كمرجعية تأسيسية في وسطها المحلي. وثاني عنصر من بين العناصر المكونة لداخل الزاوية يبرز عنصر الخطاب، الذي توظفه الزاوية للتعبير عن هويتها التصوفية من جهة و لاستقطاب جموع المريدين من جهة أخرى. و ثالث عنصر مكون لداخل الزاوية هو الفعل الممارساتي، أي النشاطات الدينية والاجتماعية التي تقوم بها الزاوية، و التي تؤدي وظيفة ترويجية للزاوية ولطريقتها.

وعلى هذا الأساس ارتأت الدراسة طرح التساؤل على النحو التالي: ما هي الاعتبارات الانثروبولوجية الفعلية لتأسيس زاوية في الوسط المحلي ؟.

حدد مجال الدراسة و ميدانها، الزاوية القادرية بمدينة عين تموشنت، و التي استمرت الدراسة على مستوى هذه الزاوية ثمانية عشرة شهرا.

وللإجابة على الإشكالية المطروحة، ارتأت الدراسة عرض الفرضيات الآتية:

✓ تستند مشروعات الرجل الصالح إلى ثلاثة مستويات: مشروعية النسب الشريف و مشروعية العلم بالكتاب والسنة ومشروعية المعجزات¹⁴. فهل لازالت الزوايا حالياً، تقوم على مثل هذه المستويات من المشروعية أم طرأ عليها تغيير؟.

✓ تقوم للزاوية بوظائف اجتماعية متنوعة يشارك فيها عدد كبير من أعضائها، و تقدم خطاباً قدسياً جذاباً لمريديها، فما هي رموز هذا الخطاب و ما هي وظائفها؟.

✓ صنف نجيب مهتدي في كتاب "pouvoir et religion au Maroc"¹⁵ المكانة التي تحتلها الزاوية في الحقل السياسي إلى قسمين: زاوية متحولة وزاوية متوقفة، ولما أرادت الدراسة تصنيف الزاوية المدروسة ضمن طرح نجيب مهتدي، افترض ميدان البحث لهذه الدراسة تصنيف آخر، اصطلحت عليه الدراسة: بالزاوية الانبعائية.

1. مفهوم الزاوية:

عرفت الزاوية على أنها بنية تجمع في فضاءها الأعضاء المنتسبين إليها، أين يمكن لهم ممارسة شعائرتهم وطقوسهم في كنفها، بالإضافة لقيامها بمختلف الأدوار الاجتماعية لفائدة المجتمع المحلي.

حسب المعجم التاريخي للإسلام¹⁶ فإن أول ظهور لها هو ببلاد المغرب في القرن 14م، وكان مفهوم الزاوية يدل في بداية استعماله على مقام بداخله مكان مخصص لذلك، أو ركن منعزل يأوي إليه المتعبد مع بعض أتباعه (...). فالزاوية ككل جامعة للدين و مكان مجاني للمبيت. و ارجع كمال فيلاي¹⁷ أصل الزاوية بالجزائر بعدما تأسست أوائل القبائل المرابطية، حيث اجتمعت الزوايا تحت لواء الرباط بغرض الجهاد منذ القرن 17م، و بعد انقضاء الملكية

تحول الرباط إلى زاوية ضمنت و وحدت الروابط المشتركة لهذا الرباط، و الزوايا نوعان: الزاوية الأصلية المرتبطة بالشيخ مؤسس الطريقة، و الزاوية الفرعية التابعة و قد يؤسسها شيخ الطريقة أو احد أتباعه الأغنياء، أو بمساهمة جماعة من المنتسبين القاطنين بجوار الزاوية و يشرف عليها مقدم¹⁸.

I. الأساس التصوري لمشروعات تأسيس زاوية:

تعتمد المؤسسات الدينية التقليدية على مشروعات تكون بمثابة سند وحصانة لها، لاسيما الجانب الروحي الذي يستلهم مبادئه من الدين الإسلامي، فما هي آليات المشروعية الروحية والانتروبولوجية التي تستند إليها مؤسسة مثل الزاوية؟.

1) مشروعية النسب الشريف:

ظهرت في القرن السادس عشر الميلادي طائفة جديدة من الأولياء و هم الشرفه القادمين من الساقية الحمراء، و هم من نشروا الصوفية في الأواسط الريفية¹⁹. يقصد بالنسب الشريف الانتماء لسلالة الرسول محمد صلى الله عليه و سلم، و يعتبر نجيب مهتدي، أن للشرفه مكانة اجتماعية مرموقة نظرا للاحترام الذي يحظون به و القداسة التي تتمتع بها عائلاتهم، إذا أهلتهم هذه الوضعية أن يكونوا موضعاً للسيطرة التامة، و سلطتهم ليست اقتصادية فحسب بل دينية و ثقافية و سياسية. و أي شخص يكون نسبه للرسول محمد صلى الله عليه وسلم، يملك شرعية أكبر في إنشاء زاوية، و له سلطة في طاعة الناس له عكس الذي لا ينتسب لنسب الرسول فعليه بالبرهان²¹.

و إذا عكسنا هذا العامل على الزاوية موضوع الدراسة، و رجعنا إلى أصل الزاوية التي أسسها جد لمقدم في القرن الثامن عشر فهي لا تخرج عن هذه القاعدة، أي الانتماء لسلالة

النبي محمد صلى الله عليه و سلم ، و هذا ما يؤهلها أن تنال رمزية شرف تأسيس زاوية مقارنة مع من ليس شريف النسب.

(2) مشروعية البرهان:

تعتبر آلية الرؤى في المنام من الآليات الانثروبولوجية و الروحية القديمة، التي تستند إليها جموع المتصوفة فهي تكرس السلطة الروحية للشيخ على أتباعه. فثقافتنا الشعبية الإسلامية تنظر إلى بعض الرؤى، أنها إما اطلاع بالغيب و إما رسالة ربانية (الهام)، خاصة إذا تزامنت هذه الرؤية مع الثلت الأخير من الليل أي مع موعد صلاة الصبح. فيتصور للشخص الذي يتصادف مع هذه الرؤية، أن رويته صادقة و لا مجال للتشكيك في مشروعيتها وهو في درجة إيمانية عالية أي في مرتبة الصالحين، و هذا ما يعطي لهذه الرؤى جانبا قدسيا لا مجال في التشكيك في صحتها. و هكذا يكون هذا الإجراء ذا قيمة استراتيجية فعالة، تستخدمها الصوفية خصوصا من اجل تكريس سلطتهم الروحية على أتباعهم. وحالة الزاوية المدروسة لا تستثني هذه القاعدة، باعتبار أن لمقدم رأى في المنام الشيخ عبد القادر الجيلاني يأمره بإعادة فتح الزاوية التي كانت قد أغلقت و هدمت في الفترة الاستعمارية.

(3) مشروعية التوارث:

ينقسم رأي الدارسين لهذا الموضوع إلى قسمين: بين من يرى في الوراثة عاملا حاسما في تثبيت المشروعية مثل ما يعتبره ابن خلدون: "القطب و معناه راش العارفين (...)"، لا يساويه احد في مقامه في المعرفة حتى يقبضه الله ثم يورث مقامه لآخر من أهل العرفان²¹. و يقول: ا. درمنغهام أن الوراثة تلعب دورا مساعدا في تثبيت مشروعية الولي²². و نفس الأمر عند اندرزبان، التي اعتبرت بدورها أن القداسة وراثية²³.

ويرى القسم الثاني القداسة أنها فعل مكتسب و لا علاقة له بالوراثة و التوريث، و على هذا الرأي تقف حليلة فرحات قائلة: "الأولياء الأولون هم مؤمنون متحمسون، استحوذوا على الفضل الرباني بالعمل و التقوى (...)، لم يرثوا الكارزمية و لا تورث"²⁴. و الملاحظة في الزاوية موضوع الدراسة حضور عامل الوراثة في عملية التأسيس، و يعتبر لمقدم إن أمر إعادة إحياء الزاوية كان معه دون إخوته الآخرين، أو أبناء العم بصفتهم الأقرب إلى التقدم أكثر من أبناء الخال أو الخالة، فهو اختيار من القدر و عناية إلهية لشخصه.

4) مشروعية العلم:

يشكل التكون الروحي الظاهري إجراء مهم في عملية البناء الرمزي و الروحي للزاوية، واعتبره رحال بوبريك، أنه ثاني عامل في تكوين القداسة بعد الشرفة. ويقصد بالتكوين الروحي الظاهري، "المعرفة الفقهية للدين أي الإمام بعلم الفقه"²⁵، أما كولونا "فاعتبرت إن العلم نافع هو شرعية لمن يريد القداسة"²⁶. " و لما أرادت الدراسة التأكد من مدى مطابقة هذا العامل على مستوى الزاوية موضوع الدراسة، لاحظت الاهتمام الكبير للمقدم الذي يوليه في ترتيل الورد الأساسي للطريقة، بعد أداء كل فريضة صلاة من كل يوم إما فرديا أو جماعيا و ترتيل راتب أذكار القرآن و السنة. و يتألف الراتب من سورة قرآنية، و أذكار المسلم اليومية و هذا حال المتصوفة عموما.

5) مشروعية البركة:

يقصد بالبركة تلك الكرامات التي يخصها الله لعباده الأتقياء، "فالكرامة ترتبط بالمعتقدات الدينية فتعيد وتثبت ما جرى من معجزات الأنبياء وما حصل عند نشوء

الاحتفالات و الطقوس و العبادات (...)، تظهر تعبيراً رمزياً عن رغبات مكبوتة عند الإنسان يسعى لتملك مثل عليا بواسطة تجربة التحقق²⁶. " تتجلى رمزية البركة الربانية في العالم و الوجود، في شكل عطاء يخص به بعض الأفراد"²⁷.

ينظر لمشروعية البركة أنها عامل محدد و مقرر لمشروعية الشيخ، و عرفها درمنغهام: "إنها قوة نفسية قابلة للتوارث"،²⁸ و ربطت كولونا "البركة بحضور العلم و هذا ما يؤهل المرباط أن يكون شخصية كارزمية."²⁹ " و يرى ر. بوبريك في بركة الشيخ: "إنها الكرامات، و هي أمر خارق للعادة يتمتع بها الشيخ، و عموم الناس يبحثون عن هذا الجانب الخارق ليتحول إلى قاعدة زبونية واسعة"³⁰.

لا يدعي مقدم الزاوية انه يملك الخوارق و المعجزات، فبركته تتمثل في امتلاكه لمفاتيح التسريح لكل من يأتيه مؤمناً و مسلماً له.

6) مشروعية الرابطة الطرقية:

القصد بهذه المشروعية هو اعتبار الزاوية كمؤسسة تقليدية تعتمد على المنهج التصوفي الطرقي للتقرب إلى الله، وبتجنيد رأس مالها الاجتماعي خدمة لكل من يأتيها لطلب حاجة دينية أو دنيوية. و انطلاقاً من هذا التعريف، فأى زاوية ربانية لا بد أن تتبع طريقة صوفية لكي تستكمل البناء الرمزي الروحي لها، من خلال اكتساب هوية إسلامية صوفية، فما هي طريقة الزاوية موضوع الدراسة؟، للإجابة على هذا التساؤل فقد قسمت الدراسة الإجابة إلى جزئين يمثل كل جزء مرحلة و هما:

1(6). المرحلة الأولى: فترة الهوس الطرقي

تمتد فترة الهوس الطرقي و الانقباض منذ إعادة تأسيس الزاوية بتاريخ: 1989م إلى غاية، فترة الاحتفال بالمولد النبوي الشريف من سنة 2010م أي واحد و عشرون سنة. و فترة الانقباض هي المدة التي قضتها الزاوية من دون طريقة من أصل الطرق القادرية، و ميزة هذه الفترة هو حالة القبض التي كانت تلازم لمقدم من فترة إلى أخرى. و حالة القبض هي حالة نفسية يدخل فيها لمقدم في الخلوة و الاعتزال و التفرغ إلى الذكر ليلا و نهارا، وقد تستغرق ساعات أو أياما معدودة و قد تطول إلى سنوات.

2(6). المرحلة الثانية: فترة التحرر الطرقي

تشهد فترة التحرر الطرقي ديناميكية في الترويج للطريقة و جمع المزيد من الفقر و ترتيل الورد الأساسي بعد كل فريضة صلاة، و كذلك ترتيل راتب أذكار القرآن و السنة، من كل يوم جمعة، و جمع الطلبة لتحفيظهم القرآن، فهي مرحلة يسودها النشاط الصوفي الروحي، إضافة لنشاطها الاجتماعي الذي يبقى الإجراء المشترك بين المرحلتين. و الزاوية الأم للزاوية المدروسة، هي الطريقة القادرية بالحرمين الشريفين في المدينة المنورة. كما سعت هذه الفترة في تعزيز عملية البناء المؤسساتي، من خلال الانخراط في الشبكة الإقليمية و الدولية للزاوية المدروسة في الطريقة القادرية.

مما لا شك فيه أن مرحلة التأسيس و التكوين هي مرحلة حرجة، و ينعكس هذا الحرج في الكم المعترف من الشرعيات التي استند عليها لمقدم في عملية البناء الرمزي، بغرض تثبيت الزاوية كمؤسسة دينية - اجتماعية.

II. الأساس الخطابي للزاوية:

تعتبر هذه المرحلة بمثابة فترة الإنتاج بشكله الرمزي، الذي يتمثل في الخطاب الذي تنتجه الزاوية لاستقطاب المرديين و توسيع قاعدتها الزبونية بالمفهوم الفييري. فما هي رموز الخطاب الديني للزاوية ؟.

1. رموز الخطاب الديني:

يقول ندير معروف: "طرق القداسة متعددة لكن في كل الحالات، الولية أو الصالحين هم وسطاء بين الله والناس، حيث يعترف الناس بالبركة التي يوزعها أو يورثها المرابطين"³¹. يتضح على هذا الأساس، أن الخطاب رباني تظهر أولى معاملته في تموضع الزاوية كوسيط بين الديني والدينيوي، بين الله و عباده. و قد يتخذ التوسط شكلا دنيويا محضا باعتبار أن ثقافة التوسط أو التدخل لدى فرد أو هيئة لقضاء حاجة ما، من الأمور الشائعة و المعقدة في حياة الأفراد. فتشكل لدى الأفراد تصور عن ماهية و فعالية الجهة التي تؤمن لهم حوائجهم، فأى شخص يريد قضاء حاجة لدى هيئة ما، إلا و تجده يبحث عن أي طريقة أو جماعة تسهل له قضاء حاجته خاصة إذا كانت شخصية دينية.

وثاني معالم رمزية الخطاب الديني الذي ينتجه لمقدم يتمثل في قدسية المكان وهو الزاوية ذات السر الرباني، التي أسسها جد لمقدم ثم اندثرت بفعل عوامل الاستعمار الفرنسي، الذي سعى لطمس خصائص الهوية المتشعبة بتعاليم الدين الإسلامي. و بعد ما يقارب قرن من الزمن أو أكثر من اندثار هذه الزاوية و مسحها من المخيلة الشعبية للمجتمع المحلي كلية، برز حفيد المؤسس يحمل في ثناياه أمر إعادة إحياء زاوية جده و هذا ما حصل مع الحفيد

الذي أعاد تأسيس زاوية الجدد. و هذا ما يعتبره لمقدم في حد ذاته سرا ربانيا لا يزول مادام الدهر باقيا، فلولا بذور الخير التي تحملها الزاوية في طياتها لما كتب الله لها بمعاودة نشاطها. وثالث آلية ترتكز على رمزية الخطاب الديني للمقدم هو الذي تتجلى معالمه في تصور لمقدم للمشروعية الانثروبولوجية في تأسيس الزاوية، و بالخصوص آلية الرؤى و المنامات التي كانت تراود لمقدم قبل أن يحمل على عاتقه أمر التأسيس. و تبرز معالم الخطاب الرمزي أيضا، في امتلاك لمقدم مفاتيح التسريح لكل من لديه مشكل دنيوي و يأتي لمقدم بنية حسنة إلا و تيسر له أمره.

يعكس الجانب الرمزي في الخطاب الديني وجهها زونيا (على حسب التعبير الفيبري) بين القاصد لطلب حاجة (المريدين) و بين المسهل لتلبية الحاجة (لمقدم)، و هذا ما أكده بوبريك قائلا: "أولى الزبائن هم المريدون من القاعدة الزونية".³¹ فمستوى حجم تلبية الحاجات للسائلين هو القاعدة التسويقية لكرامات الشيخ في الأوساط الباحثة عنها، وهذا ما سينعكس على القيمة الروحية للزاوية بشكل عام و الحالة الاقتصادية بشكل خاص. تعكس رمزية الخطاب للزاوية المدروسة، الأبعاد الإسلامية و التي تأخذ شكلا تصوفيا طريقيا، مبني على ضرورة احترام السلطة الروحية لأولياء الله.

III. الأساس الممارساتي للزاوية :

يحدد نجيب مهتدي المهام الاجتماعية للزاوية بقوله: "فهى مأوى للطلبة والمسافرين ومكان هروب للمعارضين، ومكان لفض النزاعات بين الأفراد و الجماعات".³² أما كمال فيلاي: فيحصر وظائف الزاوية بداية من القرن السادس عشر ميلادي إلى ثلاث وظائف و هي:

"الوساطة في النزاعات اليومية للانفراد، و تقسيم الأراضي والماء، التحكيم في النزاعات القبلية و الترابط بالمصاهرة عن طريق الزواج".³³

1. نشاطات الزاوية الاجتماعية

تستقبل الزاوية كل وافد إليها من الجنسين من داخل الوطن أو خارجه، فالزاوية تستقبل النساء و الرجال من دون تمييز. وسر جعل الزاوية فضاء مختلط يستقبل الجنسين، يرجع إلى تصور لمقدم الذي لا يخرج عن القاعدة العامة للدين الإسلامي، والتي تعتبر الناس سواسية دون تمييز، و لا يجب الحكم على الأفراد حسب مظهرهم لان أولياء الله لا يعرفون من مظهرهم، لكن الكرامات التي يخصها الله بهم باطنية و لا يفقهها عامة الناس. فمن مبدأ السلامة و التسليم لأولياء الله غير المعروفين ظاهرياً، يحدد لمقدم مبدأه في استقبال كافة الناس ومعرفة حوائجهم، فقد يكون احد الزائرين رجلاً كان أم امرأة من أولياء الله.

2. النشاطات الدينية للزاوية:

ما يميز الزاوية عن باقي مؤسسات المجتمع المدني هو بعدها الديني الصوفي، لذا وجب عليها مراعاة الجانب الديني من نشاطاتها. وعن نشاطاتها الدينية فيتم قراءة الورد الأساسي بعد كل فريضة صلاة إما فردياً أو جماعة، بالإضافة إلى قراءة راتب الطريقة كل يوم جمعة بعد صلاة الجمعة و بالحضور الإجمالي لكل الفقرا. وهذه القراءة للورد و الراتب هي للزاوية القادرية بالحرمين الشريفين، بعد الإجازة التي تحصل عليها لمقدم من شيخ الطريقة بالحرمين الشريفين.

والفرق الجوهرى بين راتب هذه الأذكار و الذكر الذي كان يتلى في القرن التاسع عشر، هو اختفاء لفظ تعظيم الشيخ الجليلاني حيث كان يلقب في أذكار القرن التاسع عشر بشيء

لأجل الله، و يرتل مئة و واحد و عشرون مرة (121)، وهذا ما ورد في كتاب لويس رين³⁴. غير أن الملاحظ في أذكار القرآن الواحد و العشرين هو زوال لقب الشيخ الجليلاني من أذكار الطريقة المنزوية تحت نهجه و يرجع هذا، للتغيير الذي شهدته التصور الطريقي المتأثر بالمنهج الإصلاحى للعصر الحديث. كما أن الطريقة التي اتبعتها الزاوية المدروسة مقر خلافتها بالحجاز التي يسيطر عليها الفكر السلفى الوهابى، الذي يعتقد في إتباع شيوخ الطرق الصوفية من المبتدعين في الدين و لا يجوز تقديس المخلوق على الخالق. فمالت الطريقة القادرية بالحجاز إلى مسايرتها للمعطى الجديد أي التيار السلفى الوهابى، عن طريق تغيير داخلي و الذي مس ورد الطريقة، و يظهر هذا جليا في عنوان الراتب نفسه راتب في أذكار القرآن و السنة، حتى يبين لعامة الناس خلو الذكر من أي شكل مشبوه أو خارج الحدود الإصلاحية الإسلامية. و هذا ما يظهر مرة أخرى قدرة الزاوية على التأقلم بمختلف ظروف الحياة العامة، محافظة بذلك على وجودها و بقاء هويتها الدينية و ديمومتها.

تعتبر الممارسات التصوفية الداعية إلى إطعام الطعام و إكرام القاصدين إلى الزاوية بغض النظر عن ظواهر الأمور، لان السر التصوفي يسعى للنظر و الكشف و تلبية الماورائي الباطني من الآليات الأساسية و التي لازالت الزاوية متمسكة بها إلى اليوم.

IV. الزاوية الانبعائية:

صنف "نجيب مهتدي" في كتابه "Pouvoir et religion au Maroc"، المكانة السياسة للزاوية إلى قسمين زاوية متحولة و زاوية متوقفة.

"فالزاوية المتوقفة هي بنية لا تعني أنها جامدة بل شهدت تغيرات داخلية دون المساس بقالبها الخارجى (...)، وهي تكبر و تتطور في حدود مسارها المخطط له من قبل (...).

ومن مظاهر التغيير الداخلي أن تدخل بعض التغيرات على الورد (...)، و هي على هذه الوضعية إلى غاية بداية تفكير هذه الزاوية بإعادة تموقعها اتجاه الزوايا الأخرى وباتجاه السلطة السياسية و تنتج وعيا جديدا لها.³⁵ و مع هذا التحول، تصبح الزاوية متحولة.

أما "الزاوية المتحولة فهي لا تعني القطيعة بل تحافظ على شكلها الأولي لكنها تحاول التأقلم مع ظروف وحالات محددة أو تعتاد على اتجاهات جديدة و في بعض الأحيان خارجية (...)، و لا يخرج نطاق و مجال فعلها عن دائرة اهتمام السلطة السياسية"³⁶ كما رأيناه سابقا.

فأين محل الزاوية المدروسة من هذين التصنيفين، أم لها ظروف خاصة بها تصنفها في خانة الزاوية الانبعائية، وهذا التصنيف الثالث هو الذي صاغته الدراسة و ستعتمده كمصطلح يميز الزاوية المراد دراستها.

من خلال العرض السابق و الذي حاول أن يظهر الجوانب المرئية و المخفية للزاوية موضوع الدراسة، و التي تحمل في طياتها خصوصية تتمثل في إعادة بعث نشاطها من جديد بعدما اختفت كلية من الساحة الاجتماعية المحلية، و هذا ما يميزها عن باقي الزوايا المتواجدة بالمنطقة. و تصنفها هذه الخصوصية في خانة ما اصطلحت عليه الدراسة بالزاوية الانبعائية، فما هو هذا النوع؟

مفهوم الزاوية الانبعائية هي التي أعادت صياغة آليات جديدة لإعادة بعث كيانها من جديد، في ظل مسيرتها لمتطلبات الوقت الراهن أي الظروف السياسية العامة المشجعة. فظهرت للوجود بعد اندثارها كليا بسبب ظروف تاريخية خارجية، و أنتجت لنفسها ماضي تصوفي مبني على الشفوية، بسبب الغياب الكلي لمصادر مادية مكتوبة تحدد هويتها التصوفية

الداخلية، كالطريقة المتبعة أو الورد الخاص بها. و بعد ما ذابت عناصرها في عمق نسيان المخيلة الشعبية المحلية عبر الزمن الغابر، أعادت تركيب عناصرها و انخرط عناصرها الروحي تحت لواء مناهج تصوفي يعطيها المشروعية التصوفية ليتقبلها المجتمع المحلي في صورة المؤسسة التصوفية الطرقية و في الزمن الراهن. و بعد مرحلة البناء الرمزي و تقوية هيكلها داخليا تأتي علاقتها الخارجية كإجراء يعزز بناءها الروحي.

و جاءت هذه الخلاصة كنتيجة للتجربة الفريدة التي عاشتها الدراسة أثناء مراحل الإشراف على البحث في الميدان، و هي لا تعكس بصفة دقيقة الحقيقة المعقدة للزاوية موضوع الدراسة.

V. النتائج:

تسجل المحاولة البحثية لموضوع الدراسة ضمن نسق جاء لفهم ديناميكية الظاهرة الثقافية (الزاوية)، في إعادة الإنتاج الفعلي للآليات و الدوافع المحركة لإعادة بعث الحياة للزاوية كمؤسسة دينية اجتماعية، أي البحث في ماهية المشروعيات الانثروبولوجية المتمثلة في الجانب الروحي و المادي و ما تحمله هذه المشروعيات من رموز و دلالات.

تستند الإجراءات الانثروبولوجية في عملية تأسيس زاوية إلى مجموعة من الآليات الروحية الرمزية تكون بمثابة الدعائم البنائية لها، و نجد مشروعية النسب الشريف، مشروعية البرهان، مشروعية التوارث، مشروعية العلم، مشروعية البركة و مشروعية الطرقية أو النهج التصوفي. فمجموع هذه الإجراءات هي التي اعتمدها الزاوية لصياغة جوهرها التصوفي، و مجموع هذه الآليات هي تكريس للمشروعية الإسلامية التصوفية و بهذه الشرعية تحدد و تصنف الزاوية كمؤسسة دينية الانتماء. حدد كوبلاي و ديون مستويات مشروعيات الرجل الصالح أنها

تستند إلى ثلاثة مستويات، مشروعية النسب الشريف و مشروعية العلم بالكتاب و السنة ومشروعية المعجزات كما ذكر سابقا، و حال الزاوية المدروسة يظهر تعدد و تعقد مرجعيات المشروعية التأسيسية، و هذا ما يؤثر للمستوى التغييري الذي عرفه الجانب التأسيسي في الزاوية الحالية. و خاصية هذه الآليات هو اعتمادها على الشفوية كمصدر تستلهم منه الزاوية ماضيها، فهو في حد ذاته آلية دفاعية لأنه يقوم باستخراج مرجعية الماضي لاستهلاكها في الحاضر و من دون دليل، و بالتالي هو عملية انتقاء لهذه الذكريات التي تحتمل الصواب و الخطأ عكس الكتابي الجامد.

و المؤشر الثاني فهو الأساس الخطابي و يعني الخطاب الذي تنتجه الزاوية و تقدمه لمريديها من خلال البحث والكشف عن رموز الصوفية، و يعتمد الأساس الخطابي للزاوية على المبدأ الرباني المتمثل في استخدام أبجديات الخطاب الإسلامي لاسيما الخطاب الصوفي المعتمد على آليات البركة و المعجزات التي تتمتع بها هذه المؤسسة. وتتجلى مدى ربانية الزاوية في الكرامات التي يخصها الله بها كتواب من عنده، و تنعكس هذه الكرامات في مدى إقبال المؤمنين بها ذكورا كانوا أم إناثا، و مدى انتفاعهم بهذه الكرامات يكون حسب درجة إيمان هؤلاء المريدين على الزاوية بنية خالصة (التسليم).

أما المؤشر الثالث فهو الأساس الممارس و هو ترجمة للأساس الخطابي الذي تنتجه الزاوية لنفسها و هذا حتى لا تتناقض أقوالها مع أفعالها، و إذا حدث هذا التناقض فسيترتب عنه انعكاسات سلبية وخيمة تهدد المستقبل الوجودي للزاوية بأكمله. و إذا حدث العكس أي تطابق الأساس الخطابي بالأساس الممارس، فهو انعكاس فعلي ايجابي على المستقبل الوجودي للزاوية من خلال توسع قاعدتها الزبونية التي تعتبر مصدرا لرقى القيمة الرمزية للزاوية، و عاملا

اقتصاديا يساهم بطريقة مباشرة في تحسين الوضعية المالية للزاوية حتى تستطيع تلبية حاجاتها وحاجات القاصدين إليها للمبيت و الإطعام.

تعي الزاوية حجم هذه التحديات، و يظهر وعيها في سلوكيات شخصية لمقدم الذي وظف مختلف الآليات، كإستراتيجية تتبعها الزاوية من اجل إعادة بعث كيانها كمؤسسة دينية تتبع طريق تصوفي محض. و إعادة بعث الكيان، ما هو إلا عملية بناء رمزي يدخل في تقوية دعائمه مجموع الإجراءات أو الآليات الروحية الرمزية.

الهوامش:

1-Najib MOHTADI, Pouvoir et religion au Maroc, essai d'histoire politique de la zaouïa, Ed. Eddif, 1999, Casablanca ,p. 115.(traduire par l auteur).

2-Robert MONTAGNE , « La fermentation des partis politique en Algérie », volume 2,numero 2, annee 1937 , p. 133 , www.peressee.fr , consulté le :05/01/2001.(traduire par l auteur).

3-Korso cité in Expériences du divin dans l'Algérie contemporaine- Adeptes des saints de la région de Tlemcen, par Sossie ANDEZIAN , Ed. CNRS Paris ,2001 , p. 25.(traduire par l auteur).

4-Kamel FILLALI ,Sainteté maraboutique et mysticisme , « Contribution à l'étude du mouvement maraboutique en Algérie sous la domination Ottomane » ,in revue insaniyat.(traduire par l auteur).

- 5-Octave DEPONT, Xavier COPPOLANI ,Les confréries religieuses musulmanes , Ed. Typographie et lithographie Adolphe Jourdan, Alger 1897 .Livre numérisé en monde texte par :Alain Spenatto, spenatto@club-internet.fr. www.alger-ancienne.com p.258.(traduisse par l auteur).
- 6-OP.cit. p.265.(traduisse par l auteur).
- 7-Rodert MONTAGNE,Op.Cit, p 129, consulté le :05/01/200.(traduisse par l auteur).
- 8-Kamel BOUCHAMA, Algérie, terre de foi et de culture, Ed. El maarifa, Alger,2000, p.115.(traduisse par l auteur).
- 9-Mohamed BRAHIM SALHI, «éléments pour une réflexion sur les styles religieux dans l'Algérie d'aujourd'hui », in revue, insaniyat, n° 11(mai-aout 2000) . (traduisse par l auteur).
- 10-جورج الراسي، الدين و الدولة في الجزائر من الأمير عبد القادر إلى عبد القادر، دار القصة للنشر، الجزائر، 2009، ص117.
- 11-Kamel BOUCHAMA, Op.cit, p. 105-106.(traduisse par l auteur).
- 12-صلاح مؤيد العقبي، الطرق الصوفية و الزوايا بالجزائر تاريخها و نشأتها، دار البراق، بيروت، 2002، ص 313.
- 13-Jacques BERQUE cité in Ksour et saints du Gourara ; dans la tradition orale, l'hagiographie et les chroniques locale, par Rachid

- BELLIL, mémoire du CNRPAH , n°3, Ed. Enal, Reghaia, 2003 .p.99.(traduire par l auteur).
- 14-Octave DEPONTE , Xavier COPPOLANI, cité par NADIR MAROUF ,Les fondements anthropologique de la norme maghrébine, Ed. L'Harmattan, Paris, 2005, p. 104.(traduire par l auteur).
- 15-Najib MOUHTADI, Op.cit.P :71.(traduire par l auteur).
- 16-Jamine , et Dominique SOURDEL, dictionnaire historique de l'islam, PUF,1996, p :864.(traduire par l auteur).
- 17- Kamel FILALI, L'Algérie mystique : Des marabouts fondateurs aux khouan insurgés, 15 -19 , Ed. Publisud , paris, 2002, p .104.(traduire par l auteur).
- 18-رضوان لحسن، الدور التربوي و الاجتماعي لزاوية سيدي بلكبير، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير، جامعة تلمسان، 2004 -2005 ص 113.
- 19-Sossie ANDEZIAN, Op.cit. P.21.(traduire par l auteur).
- 20-Op.Cit. p : 137-138.(traduire par l auteur).
- 21-عبد الرحمن ابن خلدون، المقدمة، تحقيق، درويش جويدي، المكتبة العصرية، صيدا- بيروت، 2002، ص 455
- 22-Emile DERMENGHEM, le culte des saints maghrébin Edit. Gallimard, Paris 8, 1954, p.26, (traduire par l auteur)
- 23-Sossie ANDEZIAN, Op.cit. p. 21.(traduire par l auteur).

- 24-Halima FERHAT , Le soufisme et les zaouyas au meghreb, mérite individuel et patrimoine sacré, Ed. Toubkal, Casablanca, 2003, p.24.(traduisse par l auteur).
- 25-Rahal BOUBRIK, saint et société en islam, la confrérie ouest saharienne fadiliyya, Edit, CNRS, Paris, 1999, P.72.(traduisse par l auteur).
- 26-Fanny COLONNA, Les versets de l'invincibilité : permanences et changements religieux dans l'Algérie contemporaine, Ed. Presse de science po, paris, 1995, P .252. (traduisse par l auteur).
- 27-علي زيعور، الكرامة الصوفية و الأسطورة و الحلم القطاع اللاواعي في الذات العربية التحليل النفسي و الأناسي للذات العربية، دار الأندلس للطباعة و النشر و التوزيع، ط2، بيروت 1984، ص 20-19.
- 28-Zakaria RHANI, « sainteté, rituel et pouvoir au Maroc » ,l'Homme revue française d'anthropologie ,Ed. EHESS, n° 190 , avril /Juin 2009, p. 29.(traduisse par l auteur).
- 29-Emile DERMENGHEM, Op .cit. p.254.(traduisse par l auteur).
- 30-Fanny COLONNA, Op.cit. p.254.(traduisse par l auteur).
- 31-Rahal BOUBRIK, Op.cit. p.85.(traduisse par l auteur).
- 32-Nadir MAROUF ,Op.cit, p. 103.(traduisse par l auteur).
- 33-Rahal BOUBRIK, Op.cit, p .88.(traduisse par l auteur).

- 34-Najib MOUHTADI, Op.cit, p.25.(traduire par l auteur).
- 35-Kamel FILALI , Op.cit, Insaniyat n°3.(traduire par l auteur).
- 36-Louis RINN, Op.cit. p. 184.(traduire par l auteur).
- 37-Najib MOUHTADI, Op.cit. p.58.(traduire par l auteur).
- 38-Ibid.(traduire par l auteur).